احد الغاز التاريخ

زوجة جان جاك روسو واولاده منها

ولد روسو في جنيف وماتت امهُ يوم وضعهِ وفرَّ ابوهُ من وطنهِ فنشأ يتيماً وقضى فتوتهُ ذليلاً . فلما بلغ اشدهُ فرَّ فالقت بهِ المقادير في دير ثم اضطر فسعى لرزقهِ باعمال البهلوية ثم قبل الخدمة في بيوت الاغنياء وذاق حلو الحياة ومرها غير مكترث لتقلبات الايام ثم حلَّ ضيفاً في منزل مدام دي ڤارين فكانت ايامهُ معها اسعد ايام حياتهِ الى ان حلَّ بالدار من زاحمهُ وفاز عليهِ فانقضت سعادتهُ ورحل عنها

بعد ان ترك روسو بيت مدام دي ڤارين دخل في خدمة دي مابلي احد اغنياء ليون مربياً لاولادهِ . و بالرغم من ان روسو الف اعظم كتاب في التربية وهو « اميل » فانهُ لم يفلح في الوظيفة التي شرع في القيام باعبائها . وتعليل عدم فلاحهِ سهل فان رجلاً عبقريًّا قليل الصبر طائراً في سماء الخيال مشغولاً بالنظريات اكثر من شغلهِ بالنتائج العملية مبغضاً للقيود التي يخضع لها افراد الناس في حياتهم الشخصية وحياتهم الاجتماعية كذلك كثير الغرور بنفسهِ منتظراً من الدنيا تحقيق آمال لاعدَّ لها ولاحد — ان رجلاً هذه صفاتهُ يستحيل ان ينجح في صنعة التعليم وان نجح في وضع اعظم كتاب في فن التربية . و يظهر ان الذي زادهُ حنقاً على الزمان وغيظاً مما وصلت اليهِ حالهُ وضجراً من القيام باتمام العمل الذي ندب اليهِ تذكرهُ حياتهُ السابقة في دار شارميت عند مدام دي ڤارين فكان اذا تذكر حقول ساڤوي وحديقة الدار واشجارها الباسقة التي كان يجلس في ظلها وخصوصاً اذا تذكر الايام السعيدة التي قضاها في محبوبة حب هذه المرأة التي كونت عقلهُ وقلبهُ وكان يعتقد انهُ خلق لها وخلقت لهُ ، كان يشعر بنار تشتعل في فؤادهِ و يعتريهِ دوار و يحسُّ كأن دقات قلبهِ قد وقفت وان انفاسهُ قد انقطعت (الاعترافات — ٥ — ٤٧١) . ولما ظهر فشلهُ في التعليم وبلغت منهُ الذكرى مبلغها تولاهُ الشوق القاتل والحنين الى دار شارميت وصاحبتها استقال بغير جدال في ابريل ١٧٤٠ وولى وجههُ شطر حبيبة قلبهِ وموقظة عقلهِ تلك التي كانت لهُ اماً وخليلة فلما بلغ بيتها والتقى بها وحادثها ادرك ان الماضي لا يعود فاقام معها بضعة اشهر على مضض ثم تجدد همهُ وكدرهُ وعاودتهُ علة التجول والانتقال فبادر بالرحيل الى باريس فلما بلغها

وهو فقير عرض على الاكادمية مشروعاً جديداً لتدوين الانغام الموسيقية وكان بني القصور على هذا المشروع فلم يحز رضاهم فقنع بالرفض وانزوى ينتظر تقلبات الدهر ومفاجآت الحوادث . فلم يلبث ان تقرب الى سيدتين عظيمتين مدام دوپان ومدام بوزنڤال ولا ندري هل حسن السياسة او سخافة العقل ادّى بروسو الى التنزل بالاولى منهما وتحرير رسالة غرامية بعد اللقاء الاول. ولا يخفى ان اعظم النساء واغناهن لا تغضب اذا خطب ودها اخس الرجال . لاجل هذا لم ترَ مدام دوپان بدّاً من الصفح عن روسو وربما كانت تشعر بسرور داخلي فهي التي وصفته بقولها انهُ « شاب بارع في تحية النساء ولكن لا يبدو عليهِ ادب ظاهر وهو يجهل قواعد الحياة الاجتماعية ولكنهُ ذكي الى الدرجة التي ليس وراءها غاية وهو اسمر اللون ولهُ عينان ينشبق منهما لهيب الفكر الذي يضيء طلعتهُ باسرها » وقد يرد هذا الوصف في مذكرات مدام دوپان (جزء ١ فصل ٤ ص ١٧٦)

فرسالة الغرام التي كتبها روسو الى مدام دوپان لم تغير قلبها عليهِ مع انهُ كان في ذلك الحين من احط الرجال وهي من ارفع نساء عصرها واذا اضفنا الى هذا انها رأت روسو لاول مرة في بيت مدام بوزنڤال يؤاكل الخدم في غرفتهم تأيد الرأي الذي ذكرناهُ وهي ان المرأة لا تميز ولا تغضب اذا خطب ودها اخسّ الرجال . وزد على ذلك ان مدام دوپان اوصت ابن زوجها بروسو خيراً فاستمرّ على موالاتهِ ومناصرتهِ زمناً كما انها سعت لهُ سعياً حميداً انتهى بتعيينهِ كاتماً لاسرار سفير فرنسا في البندقية في ربيع ١٧٤٣ وكان اذ ذاك الكونت مونتيجو وكان رجلاً جاهلاً احمق لا يصلح لشيء وللدلالة على شدة سخفهِ نذكر انهُ لاحظ ان احد الحذائين يبلى قبل الآخر فصار يأمر صانع احذيتهِ بصنع ثلاثة احذية بدلاً من حذائين . فلا غرابة اذا لم يستطع روسو ان يعيش في ظل تلك السفارة التي يشرف عليها كونت مونتيجو فعاد من فورهِ الى باريس في آخر سنة ١٧٤٤ وقد بلغ منهُ الحنق والغيظ مبلغاً شديداً واخذ يشرح شكواهُ الى وزير الشؤون الخارجية ولكن لات حين مجيب. وخلاصة رأي روسو بعد الذي اصابهُ من المذلة وسوء الطالع في البندقية ان الانظمة المدنية والسياسية تؤدي الى تضحية العدل وتساعد الاقوياء على هضم حقوق الضعفاء وسحقهم (الاعترافات ٧ — ٩٢) ولم يستفد روسو من اقامتهِ في البندقية التي فتنتهُ بذاتها شيئاً كبيراً ولكن احتكاكهُ بالسياسة ولو عن بعد في تلك السفارة نبّه فيهِ فكرة التأليف في الشؤون العامة ففكّر اولاً في وضع كتاب عن الانظمة السياسية ورسم خطة هذا الكتاب فعدل و بعد

اختبار عدة سنين دوّن كتابين كان لها شأن عظيم الاول في « اسباب التفاوت بين البشر» والثاني « العقد الاجتماعي » الشهير الذي كان لهُ اعظم اثر في عقول رجال الثورة الفرنسوية

***

عاد روسو الى باريس كما ذهب اليها وكأن القدر قد اعد لهُ خليلة جديدة يقول اصدقاؤهُ وانصارهُ انها اكبر مصيبة رماهُ بها الدهر ، ويقول هو انها اعظم نعمة حبتهُ بها الآلهة !

عاد الى باريس فنزل في فندق قذر حقير في « كارتيه لاتن » او خط المجاورين بجوار مدرسة السوربون وكانت صاحبة الفندق من الطبقات السفلى والنازلون في فندقها لا يفضلونها في شيء فهم خليط من المتشردين الذين يعيشون بالتطفل على جسم الهيأة الاجتماعية باسم الدين تارةً وباسم الحكومة طوراً وهم في الحقيقة اشرار ولصوص . وكانت تخدم هذه الطغمة من الاوغاد شابة في الثانية والعشرين من عمرها وتجلس بجوارهم على المائدة وكانت ذات حياء ظاهر وخفر ولكن حياءها وتواضعها شجعا ربة الدار على مجازفة الاضياف على حساب تلك المسكينة . كذلك هؤلاء المشردون . فهم القاتل واللاص وقاطع الطريق وخادم السيدلي ومربي الاطفال وصاحب الخانة وطالب الفلسفة والنشال لم يصونوا السنتهم عن مغازلة الصبية . فلما رأى روسو مذلة هذه المسكينة وكانت على جانب من الحسن ظن قلبها يعادل ظاهرها حسناً ولين عريكة فعطف عليها ثم تودد اليها ثم تقرب منها ثم احبها واصطفاها واتخذها خليلة . وقد دامت هذه العلاقة بين الرجل العظيم العقل والقلب وبين تلك المرأة الساذجة الى ان قضى نحبهُ بعد ان قاسى من هموم الحياة واضطهاد الاعداء ومناهضة الحاسدين ما قاسى . وليس هنا مجال الكلام الطويل في تعليل الارتباط بين ذلك الرجل وتلك المرأة (كان اسمها تريز ليفاسور) وهي من ضعف الفكر وموات النفس الى درجة انهُ حاول بكل قوته ان يعلمها القراءة والكتابة فلم يفلح ولم تكن لسوء حظهِ وحظها تستطيع ان تعيد اسماء الشهور ولا ايام الاسبوع ولا تدرك رقماً واحداً من الحساب ولا تضبط ثمن سلعة تشتريها . وقضى روسو شهراً يعلمها قراءة ارقام الساعة ثم يئس من رحمة الله . وقد روى مؤلف كتاب « روسو بين الاصدقاء والاعداء » نبذة من خطاب كتبتهُ الى روسو فاذا الفاظهُ عبارة عن الغاز يحتاج القارئ في حلها الى فطنة شامبليون الذي انبج لهُ الوقوف على اسرار الهيروغليفية من قراءة حجر رشيد .

(راجع الكتاب المذكور جزء ٢ ص ٤٥٠) . على اننا اذا جردنا شخصية روسو من مؤلفاته العظيمة ومن شهرته التي طبقت الآفاق في حياته و بعد موته فقد نرى اختياره لهذه المرأة اصلح لهُ من اختيار سواها . فان طبيعتهُ الحساسة السريعة التأثر لا تحتاج الى امرأة قوية العقل تبعث فيهِ روح الجد والنشاط وتساعدهُ على النهوض — ان امرأة كهذه ربما كانت قتلتهُ في عشر سنين ولكن طبيعة خامدة هامدة ضعيفة الشعور ميتة الاحساس راضية من العيش بالكفاف غير مدركة للمجد معنى ربما كان الثرها في حياته مهدئاً لطيلانهِ الفطري . ونظن ولا نجزم ان غريزة الرجل في احسن دليل لهُ في الزواج خصوصاً اذا كان حرّ الاختيار فان اختيار روسو لتلك النكبة كان اعظم دليل على انها تلائم طبعهُ . ولا دليل لدينا على صحة هذا الرأي اقوى من اقوالهِ المتكررة في اعترافاته بان حياتهُ مع تيريزا . . . كانت نعيماً وفردوساً وجنة دانية القطوف . وانهُ كان يراها كأنها اعظم عبقرية في العالم . وهذا الذي حررهُ في اواخر ايامهِ دليل على انهُ كان حقيقة سعيداً بزواجها . اما تيريزا نفسها فلو خيّروها لفضلت على هذا الفيلسوف الغريب الاطوار رجلاً من ساسة الخيل وخدم الاصطبلات وقد هيأ لها الحظ هذه النعمة بعد موت روسو فقد جمعت ما بقي لها من تركة الرجل العظيم واتخذت لها زوجاً من هذه الفئة . ولا غرابة في ان تيريزا ارملة جان جاك روسو تزوجت بعدهُ بسايس في اصطبل فان نساء اعظم قدراً واوسع ادراكاً واشرف اصلاً منها نزلن الى رجال احط من خادم الاصطبل . وعلى كل حال فان كان ارتباط روسو بهذه المرأة محتماً لهُ او مقللاً من مجدهِ او كان مثبطاً لهمتهِ او مانعاً لهُ عن التحليق في سماء العلى التي خلقت لهُ وخلق لها فاننا لا نلومها ولكن نلومهُ هو شخصياً لانهُ ما من شيء ادل على ميول الانسان ورغباتهِ من نوع المرأة التي يرتبط بها . كذلك لما كانت علاقتهما غير زوجية فلم يكن هناك ما يمنع صاحب اعظم عقل اصلاحي في القرن الثامن عشر من الانفصال عن زوجتهِ بعد خمس سنوات او خمس عشرة سنة فاللوم في البقاء معها على روسو نفسهِ لا على تلك الغبية القليلة الادراك والاحساس التي قضت شيخوختها المشؤومة بعد موتهِ في عشرة خادم اصطبل بعد ان كانت زوجة لاعظم رجل !

وعندنا ما يثبت ان روسو في اواخر ايامهِ شعر بالحسرة عند ما الجأتهُ الدنيا الى الوحدة والاكتفاء بمخالطة تلك المرأة التي لم تكن تفهم شيئاً ولكن هذه الحسرة لم تكن تجديهِ نفعاً بعد ان ذهب الشباب وولت الايام التي كان يستطيع خلالها ان يختار عظمى

النساء واذكاهن . ومن العجيب ان طبيعة قلب حساس كقلب روسو تزداد تعلقاً بالناس كلما كرت الايام وتقادم العهد . ولكن هيهات ان تكون قلوب الناس على هذا النحو من الميل فان قلب تريزا الخفيفة اذا كان يصح ان يكون لها قلب قد انحرف عن هذا الرجل العظيم لما رأت ان نهاية العيش معهُ انكباب على الكتب واخذ باهداب الحكمة وانصراف عن لهو الدنيا وزخرفها

اقول وكلما ازددنا امعاناً في حالة هذا الرجل وهذه المرأة ازددنا اعتقاداً بان حالتهُ المعنوية كانت على غير ما يرام وان اختيارهُ هذه المرأة ورضاءهُ بعشرتها اكثر من ثلاثين عاماً ووصفهُ تلك العيشة بانها المثل الاعلى في الهناء كل ذلك دليل على انهُ لم يكن بحالة نفسية عادية . اما اهل هذه المرأة فكانوا من اسفل الناس فقد كانوا ادنياء وكسالى وكانوا سيئ الخلق . كانت امها « تجملة » تختلف القباحات التي يبغضها روسو في جنس النساء فما بالك وقد اصبح لها صهراً ولبنتها بعلاً وصارت لهُ «اجمل الامهات» وقد صبر روسو على الضيم في عشرة هؤلاء الاسافل سنين طويلة ولم يقاطع حماتهُ الاَّ بعد أن ثبت لهُ انها سممت عقل بنتها ضدهُ وافرغت جهدها بطمعها الاشعبي واكاذيبها في جعل صهرها موضع احتقار جميع اصدقائهِ . وبعد ان مضى على ارتباطها سبع عشرة سنة شعر روسو بتحول قلب امرأتهِ عن حبهِ ولكنهُ كان بالنسبة اليها على حالتهِ الاولى واستمرَّ نفورها وتحوّل قلبها عن هذا الرجل العظيم الى درجة انها بعد ذلك بسبع سنين اي حوالي ١٧٦٢ عرضت عليهِ الانفصال عنهُ . ولا ينبغي لنا ان نظلم المرأة ونحمل تغير قلبها على دناءة اصلها وجهلها و بلادتها فقط ومن العدل ان نذكر بنير تحزب الامور التي نظنها كانت سبباً في نفورها منهُ

(١) انها رأتهُ يتخلى عن ابيها الشيخ و يتركهُ يقضي ايامهُ الاخيرة في ملجإ العجزة
(٢) تخليهِ عن اولاده بان القاهم في ملجأ الايتام
(٣) اشتغالهُ عنها اسابيع عديدة اثناء تأليف كتبهِ
(٤) عاطفة احتقار النساء عامة التي تكون عادة ملازمة لافكار العظماء

على ان روسو مع كل عيوبهِ وعاهاتهِ المعنوية الملازمة للعبقريين لم تقلَّ مودتهُ واخلاصهُ لها يوماً ومراجعة كتبهِ اليها تدل على ذلك لاسيما الخطاب المؤرخ ١٢ اغسطس ١٧٦٩ . كما انهُ في ١٧٦٨ احتفل بالزواج منها زواجاً شرعياً لتستطيع حمل اسمهِ ولتنتفع بالانتساب اليهِ بعد موتهِ وقد كافأتهُ على ذلك بانها في يوم تشييع جنازتهِ الى مدفن

الباتيون في اثناء الثورة الفرنسوية كانت تطل من نافذة بيتها على الموكب وقد خاصرها خادم الاصطبل الذي صار بعد ذلك بعلها

***

لما بدأ روسو عشرة تيريز لم يكن يملك مورداً للرزق وكان يعيش من حرفة الكتابة وخدمة مدام ديبان وقد رزق في خمس سنين من تيريز بخمسة اطفال قذف بهم جميعاً الى ملجأ الاطفال وكل مؤرخي حياته ومترجمي اخباره يصدقون هذه القصة الا جول ليمتر فانه يرميه بالكذب والاختلاق ويدعي ان روسو انما افتعل قصة الاطفال ليثبت للملأ ان له اولاداً . وقد حاول ليمتر في محاضراته (١٩٠٨) تأييد هذا الفرض بادلة كثيرة بعضها مقبول وبعضها من قبيل السفسطة ولكن لا يمكن التعويل على واحد منها. وكفانا دليلاً على صدق خبر الاطفال ما كتبه روسو في الاعترافات وفي كتاب اميل وقد دافع عن نفسه لدى ذكر هذه الجرائم الخمسة وهي التخلي عن اولاده لدى ميلادهم بانه صنع في حانة اتبع العادة المتبعة في فرنسا هي ترك الاولاد بعد مولدهم مباشرة. وما أضعفه من دفاع ولكنه في كتاب اميل يتذكر فعلته بحسرة وندم ويقول ان من فعل فعلته لا يستحق ان يكتب كتاباً عن التربية

ولا ننسى ان روسو لدى مولد اولاده الخمسة لم يكن زوجاً شرعياً لتيريز بل كان خليلاً لها ويظهر للاسف ان هذه العادة كانت شائعة واستمرت الى سنة ١٩١٢ في فرنسا لان الولد غير الشرعي لم يكن يستطيع ان ينسب الى ابيه الا اذا شاء الوالد الاعتراف به. ولسنا ندري ما الذي كان يعوق هذا الفيلسوف من الاعتراف باولاده ؟ وطالما دافع عن نفسه بقوله انه كان يخشى فساد تربية الاولاد بسبب عائلة زوجته . وقال طوراً انه يريدهم عمالاً ومزارعين لا عبادَ مال وشهرة وقال انه من رعايا « جمهورية افلاطون » الى آخر ما سولت اليه نفسه من الكلام الفارغ والعبارات المبهمة التي لا طائل تحتها

وقال حيناً انه فعل ذلك حرصاً على شرف حبيبته تيريز لئلا ينسب اليها انها حملت سفاحاً وطوراً يقول ان الحاجة اضطرته لذلك . ولكنه اعترف في خطاب الى المسيو سان جيرمان تاريخه ١٧٧٠ انه كلما حاول تبرير فعلته وجد من ضميره ما يؤنبه على اقترافها . وكتب الى مدام فرانكي في ١٧٥١ يقول انه لا يجوز للفقراء ان يتناسلوا لانهم لا يستطيعون ان ينفقوا على اولادهم

ثم قال ان الطبيعة تريد التناسل بين الجنس البشري لان الطبيعة تخلق رزقاً كافياً

للجميع ولكن طبقة الاغنياء المرذولة وحدها هي التي تحرم الفقراء من الحياة لتستأثر بجميع خيرات الحياة وتترك لهم مصائبها وشرورها . ومهما تكن اعذار روسو فمن الجلي انهُ تخلص من اولادهِ لانهُ لم يكن يستطيع الانفاق عليهم ولم يكن يريد ان ينغص نفسهُ بمشاهدة آلامهم وفي هذا من حب النفس وضعف الارادة المالقين باهل الفنون ما فيها فانهُ يظهر ان عاطفة البنوة والابوة والامومة ضعيفة في اهل الفنون

ومهما تكن جريمة روسو عظيمة في نظر اهل العواطف الرقيقة فان بعض المفكرين استباح لهُ عذراً لان ايجاد نسل بنية القاء الاطفال في الملجأ خير من ايجاد نسل بنية ترك الاطفال عالة على المجتمع ولو كانوا يسمّون باسماء والديهم اعتماداً على المثل القائل بان من يخلق الاطفال يخلق لهم رزقاً. وفي سنة ١٧٧١ شرعت مدام لوكسمبرج في البحث عن لقطاء روسو ولكنها لم تهتدِ اليهم وهكذا عاش روسو واولادهُ وبناتهُ في هذا العالم دون ان يعرف احدهم الآخر . ولما فشلت السيدة في بحثها سرّ روسو بهذا الفشل وقال لها لقد فاتت فرصة سروري بلقائهم انما البحث يكون لهُ ثمرة سرور تبريز نفسها . وعدم وجود اللقطاء هو الحادثة التي جعلت جول لمتر في ١٩٠٨ يؤكد انهم لم يوجدوا ونسي غُفِر لهُ ان ملاجئ اليتامى من أفسد الاماكن الاجتماعية ويصعب جدًّا الاهتداء الى الاطفال الذين يتركون فيها بالرغم من التدوين في الدفاتر وترك علامات واشارات تدل على كل طفل وان حوادث العثور على بعضهم ليست الاَّ من نوادر القضاء والقدر

ان الزواج الشرعي الذي اشرنا اليهِ حصل بعد التعارف والعشرة بخمس وعشرين سنة وقد قام بهِ روسو في منزلهِ بحضور شاهدين احدهما عمدة البلد ، واتخذ لنفسهِ اسمًا جديداً وهو رينو وما اشبه هذا بعقد اناطول فرانس زواجه على قارئتهِ قبيل وفاتهِ

اما روسو فقال للشاهدين انني امامكما زوج هذه السيدة ! ولا ندري لماذا لم يسجل هذا الزواج كما في العادة ولا ندري لماذا انتحل اسمًا غير اسمهِ ولكن الذي نعلمهُ ان علائقهما كانت متوترة وربما حاول روسو بهذا العقد ان يصلح الحال بينهُ وبين زوجتهِ الجديدة وخليلتهِ القديمة ولكنهُ لم يفلح ولا ننسى ان سقراط كان زوجًا لزانتيب وان عظمة الرجال لا تقاس بزوجاتهم وحياتهم العقلية لا تفسّر بحياتهم المنزلية . على هذا القياس ينبغي لنا ان نحكم على علاقة روسو بتيريز ليفاسور

محمد لطفي جمعه المحامي